المبحث الثالث

إعداد المعلم وأخلاقياته

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: نشأة مهنة التعليم.

المطلب الثاني: مراتب المعلم، وألقابه العلمية.

المطلب الثالث: معايير اختيار المعلم.

المطلب الرابع: الإعداد المهني، وأخلاقيات المعلم.

المطلب الأول: نشأة مهنة التعليم

لم يعد الإسلام التعليم مجرد مهنة من المهن أو فن من الفنون. ففي التعلم والتعليم معاني أسمى، ارتبطت بمسؤولية المسلم وواجباته الدينية، فالتعليم عبادة وقربة إلى الله تعالى، وبه يبلغ العالم المعلم منازل الأبرار يوم القيامة إن أخلص العمل لله فحمل العلم ونشره وسخره لخدمة المجتمع. لذلك أكبر المسلمون أمر التعليم وبوؤوا المعلم مكانة عالية، فقد جاء في الأثر: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدي

بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى. ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام... "[١].

ولكن هذه المعاني السامية لا تحول دون التعامل مع التعليم كمهنة وصناعة لها ضوابطها وأصولها، لنرتقي بها لتحقيق الهدف الأسمى منها. وهذا ما ذهب إليه العلامة ابن خلدون[٢] (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٦م) حيث عدَّ التعليم للعلم من جملة الصنائع[٣]، وأفرد لذلك فصلاً بيَّن فيه ما يلزم المعلم المحترف من الملكة العلمية التي تمكنه من الحذق في العلم والتفنن فيه، والاستيلاء عليه، وتميزه عن غيره. وربط ازدهار هذه الصناعة بكثرة العمران وعظم الحضارة. وفي الإشارة إلى نشأة مهنة التعليم بيَّن "أن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع، وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلّمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي"[٤].

ويؤكد ذلك أن المسلمين في القرون الأولى ميزوا بين مصطلحي العالم والمعلم، فكانوا يطلقون الأخير على من يقوم بمهنة تعليم القراءة والكتابة للصغار في الكتاتيب، في حين برزت أسماء المئات من الأئمة والعلماء الذي اشتغلوا بالعلم والتعليم وتفرغوا لذلك، إحساسا بالمسؤولية الدينية، وامتثالا لقول الله تعالى:

---

(١) روي عن معاذ بن جبل من طرق شتى موقوفاً، كما ذهب إليه أبو نعيم في الحلية وأبو طالب المكي في القوت والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه وغيرهم وهو الأشبه بالصواب. ورفعه بعضهم إلى رسول الله ﷺ، كما ذهب إليه ابن عبد البر وأبو نعيم في المعجم وغيرهم. انظر: الحداد، محمود بن محمد، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي والزبيدي، ج١، دار العاصمة للنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٨٦ وما بعدها.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٤١.

(٣) انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (مرجع سابق)، ص٢٧٥.

(٤) انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (مرجع سابق)، ص٢٩.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ورغبة في التعلم والتعليم، وطمعاً بما عند الله من الأجر والثواب. لذلك كانوا "يتعلمون الحرفة ثم يتعلمون العلم ويعلمونه حتى لا يطمعوا في أموال الناس"[١].

ومع بداية ظهور المدارس في القرن الرابع الهجري، أخذت فكرة الاحتراف في التعليم تظهر في المجتمع، وكانت بين مؤيد يرى فيها التفرغ والتخصص والإبداع، وبين معارض يرى فيها التقييد والخضوع والابتذال. إلا إنه "عند قيام المدارس النظامية أصبح من الممكن اعتبار التعليم مهنة، يختار لها كبار العلماء ذوي ثقافة معينة، يحترفون المهنة بشكل منظم، ويتخصصون في مجالات من المعرفة"[٢]. وتعد هذه الخطوة ضرورة اجتماعية لتنظيم الحياة العلمية للأساتذة والطلبة. ومنذ ذلك العهد ندر أن نجد من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يتكسب منها إلى جانب العلم.

ويعلل العلامة ابن خلدون[٣] (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٦م) أسباب نشأة الاحتراف من زاوية فنية تتعلق بتوسع العلوم وآلية التعليم فيقول: "فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية، وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت إلى علوم أخرى هي وسائل لها: من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد، فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع"[٤].

---

(١) الزرنوجي، برهان الإسلام، تعليم المتعلم طريق التعلم، تحقيق: صلاح محمد الخيمي ونذير حمدان، دار بن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص٧٩.

(٢) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص١٠٦.

(٣) سبقت ترجمته صفحة: ٤١.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (مرجع سابق)، ص٣٣٨.

المطلب الثاني: مراتب المعلم، وألقابه العلمية.

أولاً: مراتب المعلم:

١- المدرس

عرف منصب التدريس ولقب (المدرس) مع نشأة المدارس، ولم يكن مستخدما من قبل. وقد أطلق هذا اللقب في المدارس على أستاذ الفقه حصرا، ولهذا نجد أن كتب الوقف ميزت بين المدرس وغيره، ففي شرط المدرسة النظامية: "... وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها.. ومقرئ القرآن، ونحوي يدرس العربية"[(١)]،

ولكن هذا اللقب لم يحتفظ بهذه الخصوصية، حيث شاع فيما بعد، وصار يطلق على كل من "يتصدى لتدريس العلوم الشرعية: من التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والتصريف ونحو ذلك"[(٢)]، وخصوصا في مصر وبلاد المغرب.

أما لقب (المعلم) وإن كان في معناه أعم وأشمل من (المدرس)، إلا أنه شاع على معلم الصغار في الكتاتيب، وارتبط به هذا اللقب منذ القرون الأولى، كما يطلق عليه لقب (مؤدب) أحيانا. وبالتالي يعد المدرس أرقى درجة وأعلى رتبة من المعلم. واستمر التمييز بينما إلى قرون متأخرة، ويؤكد ذلك ما نصت عليه بعض وثائق الوقف في تعيين المدرسين لدروس الفقه، والمعلمين أو المؤدبين لتعليم القرآن في دار الأيتام[(٣)]. ومع ذلك فلم يكن هناك قيد يمنع من إطلاق لقب (معلم) على أي مدرس أو عالم جليل.

وأما لقب (الأستاذ) فهو فارسي الأصل وقد أطلق أولا على أصحاب الصنائع، ثم أطلق على من أظهر مهارة في التعليم، وكثيرا ما أطلق على أفاضل المعلمين، وقد ساء حظ هذا اللقب وابتذل استعماله حتى أصبح ينادى به معلمو الكتاتيب كما ينادى به الأساتذة الكبار[(٤)].

---

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٦، ص٣٠٤.

(٢) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٥، ص٤٣٦.

(٣) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٨٢. وص٤٠٧.

(٤) انظر: طوطح، خليل، التربية عند العرب، (مرجع سابق)، ص٥٠.

وقد توهم بعض الباحثين وجود منصب (نائب المدرس) نظرا لشيوع نظام الاستنابة بالتدريس. ولم أجد لهذا المنصب أصلا، فالتدريس أصالة أو إنابة لم يغير المسمى، وإنما ينحصر في أحقية التدريس وطريقة التعيين. فقد شاع في بلاد الشام وغيرها قيام المدرس بإسناد وظيفة التدريس التي يشغلها إلى من يراه كفئاً للقيام بها، وذلك نظرا للجمع بين وظيفتين كالقضاء والتدريس، أو القيام بالتدريس في أكثر من مدرسة، أو اعتزال التدريس، أو الغياب الطويل كالسفر لأداء فريضة الحج والمرض وغير ذلك، وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد القادر النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس في مواضع كثيرة.

٢- الشيخ

يطلق لقب (الشيخ) عموماً على "أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير"[(١)]. ويطلق على رئيس الصنعة عند الإضافة إليها فيقال: شيخ التجار، وشيخ النحاة. وأطلق في المدارس على من يقوم بتدريس غير الفقه من العلوم كالحديث والنحو والطب وغير ذلك. فقد جاء في الحديث عن المدرسة المستنصرية أنه جعل فيها "أربعة مدرسين (أي في الفقه على المذاهب الأربعة) وشيخ حديث وشيخ نحو وشيخ طب وشيخ فرائض[(٢)]. فكان لقب (الشيخ) في المدرسة يوازي لقب (المدرس)، ولكنه كان يضاف إلى مادة علمية فيقال: شيخ الإقراء وشيخ الحديث وشيخ النحو وغير ذلك[(٣)].

ويرى بعض الباحثين أن هذا اللقب أخذ مرتبة أعلى، وربما يشير إلى ما يوازي لقب رئيس القسم[(٤)]، أو هو أشبه بمنزلة العميد في الجامعات، حيث كانت إليه

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٦، ص١٧.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٥٤٥.

(٣) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٥٢٩، وص ٤٦٧، وج٢، ص٩٧.

(٤) النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، (مرجع سابق)، ص٣٠٥.

الرياسة العلمية في مدارس الحديث[١]. ولعل هذا الرأي يصح على المدارس الكبرى التي كانت تضم أكثر من مدرس في المادة العلمية الواحدة، فيتولى أحدهم منصب (المشيخة)، ومنه اشتهرت: مشيخة المدرسة ومشيخة الإقراء ومشيخة الحديث ومشيخة النحو ومشيخة الشافعية وغيرها[٢].

٣- **المعيد:**

وهو الرتبة الثانية بعد المدرس، وأصل هذا اللقب من الإعادة، وذلك إذا "ألقى المدرس الدرس وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه"[٣]. ومن مهام المعيد: إعانة الطلبة في فهم ما توقف فهمه عليهم، ومطالبتهم بعرض محفوظاتهم عليه، ومتابعة أحوال الطلبة ومعرفة مستواهم ليُعلم المدرس بمن يرجى فلاحه[٤]. وفي حال انقطاع المدرس أو خلو المدرسة من المدرسين لسبب ما كان المعيدون يقومون بمهمة التدريس، كما حدث في المدرسة الناصرية بمصر، واستمر ذلك ثلاثين سنة[٥].

وقد عرف هذا المنصب مع نشأة المدارس، ويبدو أنه كان معروفاً في المساجد في ذلك الوقت، فقد ورد أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي[٦] (ت:٤٧٦هـ/١٠٨٣م) رُتب معيدا في حلقة شيخه، وناب عنه في مجلسه[٧]. وكان بعض المدرسين يختار المعيد من طلبته النابغين تأهيلا له لمرتبة التدريس، وكثيرا ما كان المعيد يخلف مدرسه بعد وفاته[٨].

---

(١) انظر: غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، (مرجع سابق)، ص٢٥٦.

(٢) انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٤٣، وص٢٦٣، وص٢٩٦، وص٣٢١، وص٣٦٥. وقل أن تخلو مدرسة من ذكر المشيخة.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٥، ص٤٣٦.

(٤) انظر: ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٢٧٠.

(٥) انظر: المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٠٠.

(٦) سبقت ترجمته صفحة: ٣٨.

(٧) انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٩.

(٨) انظر: غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، (مرجع سابق)، ص٢٦٦. وانظر: أمين، حسين، المدرسة المستنصرية، (مرجع سابق)، ص٦٨.

وكان على المعيد أن يحضر الدرس ليعرف سيره، وكان يجلس إلى جانب المدرس عن يمينه أو يساره[١]. وقد يكون للمدرس الواحد أكثر من معيد بحسب عدد التلاميذ في الدرس، أو بحسب شرط الواقف. ففي المستنصرية جعل لكل مدرس أربعة معيدين[٢]، وهذا يتناسب مع عدد التلاميذ في الدرس وكانوا قرابة الستين.

وفي مدارس الحديث كان يطلق على المعيد لقب (القارئ)، وهو الذي يتولى الإفادة والإعادة للطلبة، فقد جاء في شروط المدرسة المستنصرية "أن يكون في دار الحديث التي بها شيخ عالي الإسناد وقارئان وعشرة أنفس يشتغلون بعلم الحديث النبوي"[٣]، و"يظهر أن قراء الحديث يأتون بالدرجة الثانية بعد الشيوخ، ومنها ينتقلون إلى مشيخة الحديث"[٤]. وكثيراً ما كان القارئ أو المعيد يتولى المشيخة أو التدريس في المدرسة نفسها أو في مدرسة أخرى[٥].

ثانياً: ألقابه العلمية

تنوعت الألقاب التي أطلقت على العاملين في مجال العلم والتعليم، واختلفت باختلاف التخصصات العلمية. وقد عقد بعض الأدباء فصولا أورد فيها ما اشتهر من الألقاب العلمية وغيرها على اختلاف الأمكنة والعصور[٦]. ومعظم هذه الألقاب إنما هي أشبه بالألقاب الفخرية التي يطلقها المجتمع على بعض أفراده تقديرا لمكانتهم، مثل: جمال الإسلام وحجة الدين وقدوة البلغاء وشرف العلماء.

---

(١) انظر: ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٢٠٦.

(٢) انظر: ابن الفوطي، عبد الرزاق البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، (مرجع سابق)، ص٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٨.

(٤) معروف، ناجي، تاريخ علماء المستنصرية، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٥٨.

(٥) انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٤٦، وص٣١١.

(٦) انظر: القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٦، ص٣ وما بعدها.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الألقاب العلمية "تشبه إلى حد كبير الدرجات العلمية العالية كالماجستير والدكتوراه... وإنما تجيء غالبا نتيجة للمكانة العلمية التي يكونها العالم لنفسه ويلمسها فيه المجتمع والمشتغلون بالدرس والبحث، فتستفيض بذلك شهرته، وينتشر ذكره ويلقبه رجال عصره باللقب العلمي الذي يناسبه ويدل على قدره"[١]، كالإمام والشيخ والحافظ والرحلة والصدر والحجة. ويعد لقب (الإمام) أسمى الألقاب العلمية، ويدل على تمكن صاحبه من علمه وحجيته فيه، بحيث يصير إماما يتبع في هذا العلم ويرجع إليه فيه، كالأئمة الأربعة وغيرهم.

ولم يكن لهذه الألقاب ارتباط بالمدرسة ولا بالعمل فيها، فقد أطلقت على من استحقها من العلماء الذين بلغوا مرتبة في العلم، سواء كانوا في المدارس أو في غيرها من المؤسسات العلمية. وتجدر الإشارة إلى أن شهرة المدرسة ومكانتها كانت مرتبطة بشهرة مدرسيها ومكانتهم العلمية.

المطلب الثالث: معايير اختيار المعلم.

تنوعت أساليب الوصول إلى مناصب التدريس في المدارس، منها ما جاء على سبيل التكريم والتقدير للعالم حيث تبنى المدرسة من أجله، أو التعيين بصدور قرار السلطة الحاكمة أو منشئ المدرسة أو من ينوب عنه في ذلك، ومنها ما جاء على سبيل الاحتكار أو التنازل أو المشاركة أو الاستنابة أو المنازعة وغير ذلك[٢]. وقد اعتمدت هذه الأساليب بمجملها على معايير مختلفة تبعا لشروط واقف المدرسة. ومن أبرز هذه المعايير:

أولاً: الكفاءة العلمية: وتعد المعيار الأهم، حيث كان أصحاب المدارس يبحثون عن كبار العلماء ممن فاضت شهرتهم باشتغالهم بالبحث ونبوغهم فيه، وشهد لهم رجال عصرهم، أو انتهت إليهم رياسة العلم في بلادهم، أو عرفوا بمؤلفاتهم ورحلاتهم، فكانت تبذل لمثل هؤلاء كل وسائل الجذب والتقدير. وكثيراً ما

(١) غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، (مرجع سابق)، ص٢٣٠.

(٢) لمزيد من التفصيل حول أساليب الوصول إلى مناصب التعليم انظر: سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص١٦٧ وما بعدها.

كانت المدارس تبنى من أجلهم. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، فقد كان نظام الملك يبني مدارسه على هذا الأساس "فمن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب"[١]. ومن مآثر نور الدين زنكي[٢] (ت:٥٦٩هـ/١١٧٤م) أنه "بنى للأئمة المدارس"[٣].

ونظراً لارتباط مكانة المدرسة وشهرتها بمكانة المدرس وشهرته، فقد كان من عادة السلاطين إذا بنى أحدهم مدرسة "ألا يولي فيها إلا فيما يعظم خطره، ويرتفع شأنه، مما لا ناظر له"[٤]. كما حرص كثير من أرباب المدارس على صيانة سمعة مدارسهم من بعدهم فاشترطوا الكفاءة العالية والتخصص. ففي شرط المدرسة القصاعية بدمشق أن يكون المدرس أعلم الحنفية بالأصلين[٥]. وفي شرط المدرسة الشيخونية بمصر "أن يكون المدرس ذا رحلة"[٦]. وفي شرط المدرسة التنكزية بالقدس "أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى، عالما بمذهب الإمام أبي حنيفة النعمان"[٧]. وفي شرط المدرسة الجمالية بمصر - وكانت وقفا للمذاهب الأربعة - شرط واقفها في مدرس كل مذهب أن يكون متمكناً من مذهبه، ففي شرط مدرس الشافعية أن يكون: "عالماً بمذهب الإمام الشافعي.. حافظاً لنقول الفقهاء وأقاويل العلماء واختلاف المذاهب ونصوص الإمام الشافعي ومن بعده من أصحابه، عارفاً بكل كتب السادة الشافعية، وتبيين مسائلها، وإيضاح مشكلها بالأحكام بدلالاتها الشرعية والفقهية، وتسهيل عسيرها، أهلا للتدريس والفتوى"[٨]. وفي شرط المدرسة الصرغتمشية بمصر أن يكون "فيه أهلية الاشتغال بمذهبه،

---

(١) الأصفهاني، محمد بن حامد، تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٥٩.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٣٤.

(٣) المقدسي، أبو شامة، الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (مرجع سابق)، ج١، ص٥١.

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٤، ص٤٠.

(٥) انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٥٦٥.

(٦) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، ج٤، ص٤٨.

(٧) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

(٨) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٣. نقلاً عن وثيقة وقف جمال الدين الأستادار رقم ١٠٦، محفظة رقم ١٧، المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بمصر.

ويكون أفقه الحنفية في الديار المصرية"[١]. واشترط في مدرس المدرسة الأشرفية بمصر أن يكون قادراً على التدريس من الكشاف في التفسير، ومن المفتاح في البلاغة، ومن الهداية في الفقه الحنفي، ومن البردوني في أصول الفقه[٢].

ثانياً: الصلاح والتقى: وهذا المعيار يؤخذ بداهة في مجتمع متمسك بالقيم السامية والأخلاق النبيلة، فعلى من يتصدى للتربية والتعليم أن يكون قدوة في سلوكه وأخلاقه قبل علمه ومنطقه. وقد ورد في الأثر: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[٣]. ولهذا كانت سمعة العالم الخلقية وأمانته العلمية تسبق كفاءته المهنية والعلمية. وصيانة للمدارس من علماء السوء لم يفت أرباب المدارس أن يشترطوا سلامة العقيدة والصلاح والتقى. ونصوا على ذلك في وثائق وقفهم، فجاء في شرط المدرسة الشامية الجوانية بدمشق "أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة"[٤]. وفي شرط المدرسة التنكزية بالقدس: "أن يكون من أهل الخير والدين والصلاح"[٥]. وفي شرط المدرسة الجمالية بمصر "أن يكون من أهل العلم والصلاح.. سني الاعتقاد"[٦]. وكانت المدارس تغلق في وجه من اشتهر عنه سوء في الطبع أو فساد في الخلق[٧].

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٤٤. نقلاً عن وثيقة وقف الأمير صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف، ص٢٦.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص٢٤٥. نقلاً عن وثيقة وقف السلطان الأشرف برسباي رقم ٨٨٠، أوقاف، ص١٧١.

(٣) رواه مسلم عن محمد بن سيرين من قوله. انظر: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: د. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت، ج١، ص١٤.

(٤) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٣٠٣.

(٥) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

(٦) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٣. نقلاً عن وثيقة وقف جمال الدين الأستادار رقم ١٠٦، محفظة رقم ١٧، المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بمصر.

(٧) عزل الشيخ علاء الدين الرومي عن التدريس أكثر من مرة لشراسة طبعه وحدته واستخفافه بالعلماء. انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (مرجع سابق)، ج٦، ص٤١. وانظر: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٤٢٣. و ج٨، ص٦٩.

ثالثاً: المذهب الفقهي: ارتبطت نشأة المدارس بتعليم الفقه في الدرجة الأولى، وكانت على الغالب أحادية المذهب، وبالتالي كان من الطبيعي أن يشترط في المدرس فيها أن يكون من أصحاب المذهب الفقهي الذي تقوم المدرسة بتعليمه والمنصوص عليه في شرط وقف المدرسة. وكذلك في المدارس التي أنشئت لأكثر من مذهب، كان يختار لكل مذهب مدرس من أصحاب المذهب. ولهذا بقي كرسي تدريس المذهب المالكي في المدرسة المستنصرية شاغراً لمدة سنتين تقريباً لعدم وجود مدرس كفء من أهل المذهب في بغداد[١].

ولا شك أن هذا المعيار يعكس صورة التعصب المذهبي الذي ساد في بعض العصور، ومثل هذا لا ينكر في بعض المدارس، كمن اشترط المذهب في سائر المدرسين كالنحوي والواعظ ومناول الكتب[٢]، أو في سائر العاملين في مدرسته حتى البواب والفراش[٣]، أو من منع دخول أحد من مذهب آخر[٤].

ولكنه من ناحية أخرى يعكس مدى الاهتمام بالتخصص بالمادة العلمية والتمكن منها. فلكل مذهب أصوله وقواعده في الاستدلال واستنباط الأحكام. ولا بد من مدرس متمكن في المذهب ملتزم به حتى يؤسس طلبته تأسيساً متيناً قبل دراستهم للفقه المقارن.

رابعاً: معايير أخرى: ثمة جملة من الشروط والمعايير التي وضعها أصحاب المدارس تبعاً لرغبتهم الشخصية وفلسفتهم التعليمية، مما يؤكد حرية التعليم وعدم خضوعه لقوانين مضبوطة ومعايير ثابتة. وإن كانت هذه الشروط في مجملها لا تستهدف إلا صالح التدريس وتعزيز فاعليته. ومن هذه الشروط:

---

(١) انظر: أمين، حسين، المدرسة المستنصرية، (مرجع سابق)، ص٦٧.

(٢) كشرط المدرسة النظامية ببغداد. انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١، ص٣٠٤.

(٣) كشرط المدرسة المجاهدية بسنجار. انظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد الجزري، الكامل في التاريخ، (مرجع سابق)، ج٨، ص١٣٨.

(٤) كشرط المدرسة الرواحية أن لا يدخلها يهودي ولا نصراني ولا حنبلي. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ٢٦٧.

١. **التفرغ للتدريس:** لم يكن لهذا المعيار اعتبار في كثير من المدارس، فقد كان المدرس يجمع بين وظيفتين كالقضاء والتدريس، كما يجمع بين أكثر من مدرسة، فقد أضيف إلى شمس الدين ابن خلكان (ت:٦٨١هـ/١٢٨٢م) "مع القضاء نظر الأوقاف والجامع والمارستان وتدريس سبع مدارس: العادلية والناصرية والعذراوية والفلكية والركنية والإقبالية والبهنسية"[١]. وهذا يدل على الشهرة والكفاءة العلمية والقدرة على القيام بكل تلك الأعباء والمسؤوليات.

ولكن بعض مؤسسي المدارس لم يرق لهم ذلك فاشترطوا في المدرسين والمعيدين التفرغ تماما للتدريس، "فلا يشتغلوا بمدرسة أخرى، ولا يكون لواحد منهم تعلق بمدرسة أخرى ولا مباشرة تجارة ولا بزازة يعرف بها غير تجارة الكتب"[٢].

كما اشترط بعضهم على المدرس السكن في المدرسة[٣]، واشترط غيرهم العزوبة[٤]. وكان القصد من مثل هذه الشروط "توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم، ولكن حصل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير"[٥]. فكانت سببا في عدم إقبال الكثير من المدرسين والطلبة.

٢. **اللياقة البدنية:** اعتنى أصحاب المدارس بالسلامة الصحية فكانوا يوفرون العلاج للمقيمين في المدرسة. وقد حرص بعضهم على توفر شروط السلامة الصحية واللياقة البدنية في العاملين في المدرسة لما له من أثر على العملية التعليمية، ففي المدرسة الأشرفية بمصر شرط الواقف "أن لا ينزل أحد في الوظائف المذكورة ممن

---

(١) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ١٩٢.

(٢) الصفدي، خليل بن أيبك، أعيان العصر وأعوان النصر، ج٤، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٢٩٨. وكان من شروط المدرسة الشامية البرانية والبادرائية والماردانية بدمشق أن لا يجمع المدرس بينها وبين غيرها من المدارس. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٠٦، وص٢٧٩، وص٥٩٢.

(٣) كشرط المدرسة الركنية البرانية بدمشق. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٥١٢.

(٤) كشرط المدرسة البادرائية. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٠٦.

(٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، (مرجع سابق)، ج١٣، ص٢٠٩.

به عاهة من جذام أو برص"[١]. وزيادة على ذلك اشترط في المدرسة الجمالية أن يكون المدرس حسن الهيئة[٢].

ويبدو من خلال الوقائع والأحداث أن معظم المدارس كانت تتجاوز عن بعض العاهات التي لا تعيق العملية التعليمية كاللكنة الخفيفة[٣] والعرج[٤] مقابل الغزارة في العلم والبراعة في الفن. كما كانت تسمح بعمل المدرس الضرير فيها[٥]. ولم أجد في وثائق الوقف ما يدل على خلافه.

٣. السن: لم يقف السن عائقا دون الوصول إلى منصب التدريس ما دامت الكفاءة العلمية متوفرة، فقد تولى مناصب التدريس والإفتاء عددا من العلماء ولما يبلغوا العشرين، كإمام الحرمين الجويني[٦] (ت:٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الذي "تفقه في صباه على والده، وله دون العشرين سنة، فأقعده مكانه للتدريس"[٧]. كما درس في المدرسة الإقبالية بدمشق مدرس ابن خمس عشرة سنة، وحضر درسه القضاة وأعيان المدرسين والفقهاء، وأثنوا عليه وعلى نباهته وفهمه وحسن آدابه وفصاحته وقوة جنانه مع صغر سنه[٨]. وهذه الأمثلة لا تشكل ظاهرة يمكن القياس عليها،

---

(١) انظر: دراج، أحمد، حجة وقف الأشرف برسباي، (مرجع سابق)، ص٥٦.

(٢) انظر: أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٣. نقلاً عن وثيقة وقف جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦، محفظة رقم ١٧، المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بمصر.

(٣) تولى الشيخ يوسف بن عيسى السيرامي مشيخة البرقوقية والشيخونية، وكانت عنده لكنة. انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (مرجع سابق)، ج٥، ص٣٢٧.

(٤) درس الشيخ بهاء الدين النابلسي في دار الحديث النورية وكان يعرج من رجله. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص١٠٧.

(٥) كان الشيخ أبو طالب عبد الرحمن بن عمر الحنبلي ضريراً، وقد درس في المدرسة البشيرية والمدرسة المستنصرية. انظر: ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن حسن الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، ص٣١٣، برقم: ٤٢١.

(٦) سبقت ترجمته صفحة: ٦٤.

(٧) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٦، ص٢٤٥.

(٨) انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٤٧٦.

فقد كان الغالب أن لا يصل المدرس إلى منصب التدريس إلا في العقد الثالث أو الرابع من عمره، نظراً لمتطلبات التحصيل العلمي من جهة، ومتطلبات العمل الذي يحتاج إلى مهارة وخبرة طويلة من جهة أخرى. ولهذا نجد بعض أرباب المدارس يشترط السن والنضج في المدرس، ففي شرط المدرسة المسلمية بمصر "أن يكون المدرس في حدود الأربعين"[١].

٤. **العروبة:** فقد جاء في شرط المدرسة الخروبية بمصر "أن لا يلي فيها أحد من العجم وظيفة من الوظائف فقال في كل وظيفة فيها: يكون من العرب دون العجم"[٢].

المطلب الرابع: الإعداد المهني، وأخلاقيات المعلم.

أولاً: الإعداد المهني للمعلم:

كانت المدرسة الإسلامية بمنزلة الجامعة اليوم تخرج المعلمين لشتى العلوم والاختصاصات. وكان الطالب يتلقى العلوم اللازمة، ويتدرب التدرب المناسب قبل أن يتصدر للتدريس أو الفتوى، وإلا فقد عرض نفسه للسقوط والمهانة، ولذلك قيل: "من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه"[٣].

وقد بدأت آلية تأهيل مدرسين متخصصين تتبلور مع بداية احتراف مهنة التدريس. حيث "تطور الإعداد على مدى زمني متطاول من إعداد ذاتي يقوم به العالم الذي يصل بجهده الشخصي إلى مستوى مناسب من الثقافة والعلم يسمح له بإفادة الطالبين إلى إعداد عملي وفني بإشراف شيوخ مجربين، يمنحون من يصطفونهم إجازات خاصة تعبر عن صلاحيتهم لممارسة وظيفة التدريس"[٤].

---

(١) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، (مرجع سابق)، ج٩، ص١٥٤.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٦٩.

(٣) أثر هذا القول عن أبي بكر الشبلي. انظر: ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٤) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص١٠٣- ١٠٤.

ويبدو أن مناهج الإعداد والتأهيل "كانت مختلفة باختلاف الغرض الذي يرمي إليه المتعلم، فمنهج من أعد نفسه ليكون كاتباً غير منهج من أراد أن يكون محدثاً، وكلاهما غير من أراد أن يكون طبيباً أو فيلسوفاً"[١]. وفي الأحوال كلها ثمة أمور مشتركة لا بد لمن هيأ نفسه لمنصب التعليم أن يتدرب عليها ويعمل بها.

ومن الملاحظ أن عملية الإعداد والتدريب لم تكن منفصلة عن الدراسة، فكان على الطالب إذا ما أكمل دراسته أن يتدرج في مراحل تأهيلية تنتهي به إلى الدرجة التي يسعى إليها كالتدريس أو الإفتاء أو القضاء، وصولا إلى أعلى الدرجات العلمية. وقد تعرض لهذه المراحل الشيخ تاج الدين السبكي (ت:٧٧١هـ/١٣٧٠م) ووضح مهمة كل منها[٢]:

- **درجة المنتهي:** وهي أول درجة فنية يبلغها الطالب الذي أنهى دراسته، وعليه الاشتغال بالبحث والمناظرة زيادة على مداومة الحضور في الدرس.
- **درجة المفيد:** وهو كالمنتهي في الاشتغال في البحث، ولكن عليه أن يقدم في الدرس ما تحصل به فائدة للطلبة كإعداد بحث ونحو ذلك.
- **درجة المعيد:** وعليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة.
- **درجة المدرس:** وعليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين بما يتناسب مع مستواهم العلمي.

أما درجة العالم أو الأستاذ أو شيخ العلم، فلا يبلغها المدرس إلا نتيجة إعداد خاص وجهد ذاتي يمكنه من اكتساب المعارف وإتقان المهارات وصقل الخبرات، حتى يصبح مرجعاً في ذلك العلم، ويشهد له رجال عصره بذلك. وليس بالسهل نيل هذه الدرجة. فقد ورد عن بعض العلماء قوله: "لا يسمى العالم بعلم ما عالماً بذلك العلم على الإطلاق، حتى تتوافر فيه أربعة شروط أحدها: أن يكون قد أحاط علماً بأصول ذلك العلم على الكمال. والثاني: أن تكون له قدرة على العبارة عن ذلك

---

(١) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ص٦٩.

(٢) السبكي، عبد الوهاب بن علي، معيد النعم ومبيد النقم، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٠٥ وما بعدها.

العلم. والثالث: أن يكون عارفاً بما يلزم عنه. والرابع: أن تكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم"[١].

ولم تكن تلك المراحل تخضع لنظام متبع يفصل المرحلة عن الأخرى، أو يحدد مدة المرحلة. ولا يشترط أن يمر المتعلم بكل تلك الدرجات حتى يبلغ منصب التدريس. فقد يتجاوز بعضها بناء على كفاءته العلمية. ويرجع تقدير ذلك إلى العالم الذي يجيزه في التدريس. يقول أبو إسحاق الشيرازي[٢] (ت:٤٧٦هـ/١٠٨٣م) عن شيخه: "لازمت مجلسه، بضع عشرة سنة، ودرَّست أصحابه في مجلسه بإذنه، ورتبني في حلقته، وسألني أن أجلس في مسجد للتدريس"[٣].

وكثيراً ما نجد في تراجم المدرسين ما يشير إلى مرورهم بتلك المراحل مثل: أنهى وأفاد وأعاد ودرس وأفتى وأذن له[٤]. وتعد تلك المراحل في الإعداد تدريباً عملياً على البحث والمناظرة والمحاضرة والتدريس والإفتاء. وكان المدرس في طور الإعداد يلقي الدروس ويتصدر للفتاوى بين يدي أستاذه[٥]. واشتهر أن يعين المتعلم في المدرسة التي درس فيها، فيتولى الإعادة ثم التدريس[٦]. وبذلك تتوسع مداركه، وتزداد خبراته، وتصقل مهاراته.

---

(١) أثر هذا القول عن الفارابي وغيره. انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الإفادات والإنشادات، تحقيق: محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٠٧

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٣٨.

(٣) السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٥، ص١٤.

(٤) ذكر النعيمي عن مدرس الإقبالية الشيخ عماد الدين الحسباني: "وقدم دمشق.. فقرر فقيها (طالباً)، بالشامية البرانية، وأنهاه مدرسها الشيخ شمس الدين بن النقيب، وانتهى معه الشيخ علاء الدين بن حجي، ولم يزل في نمو وازدياد واشتهر بالفضيلة، ولازم الشيخ فخر الدين المصري حتى أذن له بالإفتاء، ودرس وأفتى وأفاد.. وناب..". انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص١٦٣.

(٥) انظر:السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (مرجع سابق)، ج٣، ص٣١٢.

(٦) تفقه الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الشيباني في المستنصرية على يد الشيخ تقي الدين الزريراتي، حتى برع وأفتى، وأعاد عنده بالمستنصرية، ثم درس فيها للحنابلة. انظر: ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد ابن حسن الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٤١. وتتلمذ أبو بكر الشاشي على يد أستاذ النظامية أبي إسحاق الشيرازي، وصار معيد درسه، وصنف ودرّس في النظامية. =

وقد فصَّل بعض العلماء في كتبهم القول في طريقة إلقاء الدروس، واختيار الأوقات المناسبة، وأساليب التعامل مع الطلبة، ومراعاة مصلحتهم، كما وضعوا الأسس اللازمة لإعداد المعلم وتأهيله تربوياً وأخلاقياً، وبينوا الصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المعلم.

ثانياً: أخلاقيات المعلم

ينطلق الإعداد التربوي والأخلاقي للمعلم المسلم من دافع إحساسه بالمسؤولية الدينية في الدرجة الأولى. وقد مكَّنه ذلك من رؤية مسؤوليته الأخلاقية بشكل واضح ومنقطع النظير. "ولذلك فإن ما يثير إعجابنا بالمربين المسلمين هو ارتفاع التعليم عندهم إلى مرتبة المسؤولية الأخلاقية العالية، مسؤولية تحمل ضمير العالم المسلم الشيء الكثير، وتثير في عقله الكثير من الأسئلة القانونية والتربوية التي تنم عن مدى حرص العلماء في أن تكون ممارسة عملهم التعليمي ابتغاء لمرضاة الله ومثوبته، وهذا فعلا وحقا من أكبر المؤشرات على سمو التعليم عن أن يكون حرفة ارتزاق"[(١)]. وهذا بدوره شكل شبه قانون أخلاقي لمهنة التعليم، يلتزم به العالم المعلم عملاً وسلوكاً، ويكون قدوة لتلامذته إعداداً وتأهيلاً لدخول مهنة التعليم. وقد نبه الإمام الغزالي[(٢)] (ت:٥٠٥هـ/١١١١م) إلى أهمية الالتزام بهذه الآداب صيانة للعلم وتعظيماً لمكانته فقال: "من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه"[(٣)].

وتعد هذه الأخلاقيات أمراً مكتسباً، ومن نتاج التربية والإعداد، ولذلك كتب العديد من العلماء جملة من الرسائل والكتب التي فصلت القول في أخلاقيات المعلم والمتعلم. ومنها:

=

انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٦، ص١٣٨.

(١) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص١٠٧.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٤٦.

(٣) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٩.

- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين لأبي الحسن علي بن خلف القابسي (ت:٤٠٣هـ/١٠١٢م).

- وجامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت:٤٦٣هـ/١٠٧١م).

- وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م).

- والمعيد في أدب المفيد والمستفيد لعبد الباسط العلموي، (ت:٩٨١هـ/١٥٧٣م).

بالإضافة إلى ما أفرده الكثير من العلماء في كتبهم من فصول تربوية تتناول آداب المعلم والمتعلم، كالإمام الغزالي في: إحياء علوم الدين، وميزان العمل، وفاتحة العلوم، وغيرها.

وقد تتبع الباحث معظم تلك المصادر لجمع ما ورد فيها من الأخلاقيات فوجد أن أفضل من جمعها وأحسن تصنيفها الشيخ بدر الدين بن جماعة الكناني[1] في كتابه: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. وقد أجمل أبرز هذه الأخلاقيات فيما يأتي:

١. المعلم رباني الهدف والتفكير والسلوك:

الربانية في التعليم تشمل الخصال التي يجب أن يتخلق بها المعلم ابتداء من الهدف وانتهاء بالسلوك. والمراد أن يجعل المعلم عمله موافقا لمنهج الله في الحياة، متصفا بصفاته. وقد ربط الله تعالى هذه الصفة بالتعلم والتعليم فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وإذا كان المعلم ربانيا استهدف من كل أعماله التعليمية ودروسه أن يجعل طلابه أيضاً ربانيين، يرون آثار عظمة الله ويستدلون عليها في كل ما يدرسون، ويخشعون لله ويشعرون بإجلاله عند كل عبرة من عبر التاريخ، أو سنة من سنن الحياة أو سنن الكون أو

(١) سبقت ترجمته صفحة: ٧٤.

قانون من قوانين الطبيعة، وبدون هذه الصفة لا يمكن للمعلم أن يحقق هدف التربية الإسلامية، لأن عبادة الله تعالى يجب أن تعم نظرتنا إلى الكون وأعمالنا كلها في الحياة وتفكيرنا كله"[١].

وصفة الربانية تتطلب الإخلاص في التعليم، فلا يقصد المعلم بعمله وسعة علمه إلا مرضاة الله تعالى والوصول إلى الحق ونشر العلم النافع. ولذلك جاء التحذير الشديد لمن يتخذ العلم مطية لتحقيق مآرب شخصية فقد ورد في الحديث الشريف: (لا تَعَلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تَخَيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار)[٢]. وكان الإمام الشافعي[٣] يقول: "وددت لو أخذ عني هذا العلم من غير أن ينسب إلي منه شيء"[٤].

٢. المعلم مثال الأخلاق ونموذج الآداب:

لا شك أن التحلي بالأخلاق الحميدة والآداب الفاضلة واجب كل إنسان، وسبيل كل عاقل، ولكنه على المعلمين أوجب، والتزامهم به آكد. وقد بين ذلك ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) في مقدمة كتابه بقوله: "إن من أهم ما يبادر به اللبيب شرخ شبابه، ويُدئب نفسه في تحصيله واكتسابه: حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء، لِعِلْمهم بمكارم

(١) النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، (مرجع سابق)، ص١٧١.

(٢) رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك. انظر: ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمود محمد محمود نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص١٥٢، برقم: ٢٥٤.

(٣) هو الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي، صاحب المذهب، أحد الأئمة الأربعة، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ، شهرته تغني عن التعريف به. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (مرجع سابق)، ج١٠، ص٥، برقم١.

(٤) الأسنوي، عبد الرحيم، طبقات الشافعية، ج١، (مرجع سابق)، ص١٩.

أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف"[١].

وتكمن أهمية تحلي المعلم بكريم الخلق وعظيم الأدب في أن المعلم نزل بأعظم منزلة، وهي منزلة القدوة للمتعلمين، والمتعلم سريع التأثر بمعلمه إذا أحبه، فيتشبه به، ويسلك مسلكه، ويتأثر بشخصيته، ويتشرب بقصد أو بغير قصد مبادئه وقيمه. ثم إن المعلم ترمقه عيون الناس جميعاً لا عيون طلابه وحدهم، فإن قال ما لا يفعل، أو ناقض سلوكه ما دعا الناس إليه، سقط من أعين الناس، واستخف به طلابه والناس أجمعون. ولهذا حض ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) المعلم على الالتزام بجميل الأخلاق، "بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها، فإن العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع في الأحكام، وهم حجة الله تعالى على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدي بهديهم من لا يعلمون[٢].

ولهذا كان المعلم يراقب نفسه ويهذب أخلاقه لما يعلم من عظيم دوره ورسالته. ويعبر عن ذلك الإمام الغزالي[٣] (ت:٥٠٥هـ/١١١١م) بقوله: "وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل مرادي أم أحترم دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، ولكنه حركني، وأني لم أعمل، لكنه استعملني، فأساله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي، ويهدني ثم يهدي بي وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه"[٤].

وكان المتعلمون حريصين على اكتساب الأدب قبل اكتساب العلم، ولا يكون ذلك بالحفظ ولا بالتلقين، وإنما بالمشاهدة والاقتداء. فيتعلمون من سلوك

---

(١) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٥٠.

(٣) سبقت ترجمته صفحة: ٤٦.

(٤) الغزالي، محمد بن محمد، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت، ط٧، ١٩٦٧م، ص١٢٣.

المعلم وأدبه قبل علمه. وقد نقل عن بعضهم قوله: "كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه"[١]. كما أدركوا أن العلم بغير أدب يضيع أثره ويفقد قيمته. لذلك أثر عن بعضهم: "نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث"[٢]. وكان من وصايا الآباء: "يا بني، لأن تتعلم بابا من الأدب أحب إلي من أن تتعلم سبعين بابا من أبواب العلم"[٣].

٣. المعلم صائن لعلمه عن المفاسد والمطامع:

إن أمانة حمل العلم تتطلب من المعلم أن يقوم له بما يستحقه من الصيانة والعزة والشرف. وصيانة العلم لا تكون إلا بصيانة النفس، فهي أصل الفضائل، كما قال الماوردي[٤]: "إن صيانة النفس أصل الفضائل، لأن من أهمل صيانة نفسه، ثقة بما منحه العلم من فضيلته، وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته، سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبذله، فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل، لأن القبيح أنمُّ من الجميل، والرذيلة أشهر من الفضيلة، إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ، فلا ينصفون محسنا، ولا يحابون مسيئا، لا سيما من كان بالعلم موسوما، وإليه منسوبا، فإن زلته لا تقال، وهفوته لا تعذر، إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها... وإما لأن الجهال بذمه أغرى، وعلى تنقيصه أحرى.. وإذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها،

---

(١) ذكره الأصفهاني عن الزهري. انظر: الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٠٩، ص٣٦٢.

(٢) من قول مخلد بن الحسين. انظر: البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، ج١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص١٢٢.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٢١.

(٤) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن البصري الماوردي الشافعي، الملقب بـ: (أقضى القضاة)، ولد سنة:٣٦٤هـ، كان إماماً جليلاً رفيع الشأن، له اليد الباسطة في المذهب والتفنن التام في سائر العلوم، من تصانيفه: الحاوي، والإقناع، وأدب الدين والدنيا، ودلائل النبوة، وغير ذلك، مات سنة: ٤٥٠هـ. انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٥، ص٢٦٧، برقم: (٥١١).

ولازم فعل ما يلزمها، أمن تعيير المُوالي، وتنقيص المُعادي، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله"[١].

ويرى ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) أن صيانة النفس تبدأ بالتنزه عن دني المكاسب ورذيلها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً. وكمال النزاهة والمروءة أن "يتجنب مواضع التهم وإن بعدت، فلا يفعل شيئا يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً وإن كان جائزاً باطناً؛ فإنه يعرض نفسه للتهمة وعرضه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة وتأثيم الوقيعة، فإن اتفق وقوع شيء من ذلك لحاجة أو نحوها أخبر من شاهده بحكمه وبعذره ومقصوده؛ كيلا يأثم بسببه أو ينفر عنه؛ فلا ينتفع بعلمه، وليستفيد ذلك الجاهل به"[٢].

وعلى المعلم "أن ينزه علمه عن جعله سلما يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو تقدم على أقرانه.. وكذلك ينزهه عن الطمع في رفق من طلبته بمال أو خدمة أو غيرهما بسبب اشتغالهم عليه وترددهم إليه"[٣]. وكمال الصيانة "أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف؛ فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة"[٤].

٤. المعلم بانٍ للمجتمع متواصل معه.

يعد الاتصال بالحياة الاجتماعية صفة بارزة من صفات المعلم الناجح، لأنه مسؤول أكثر من غيره في بناء مجتمعه، ولا يمكن أن يقوم بتلك المسؤولية على الوجه الأكمل إلا بمصاحبة الناس والتواصل معهم، والمشاركة في الحياة الاجتماعية، والقيام بكل ما تتطلبه مخالطة الناس من "إطلاق الوجه، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم،

---

(١) الماوردي، علي بن محمد، أدب الدنيا والدين، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٦.

(٢) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٤٥.

والإيثار وترك الاستئثار، والإنصاف وترك الاستنصاف، وشكر التفضل، وإيجاد الراحة، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات، والتلطف بالفقراء، والتحبب إلى الجيران والأقرباء، والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم"[١]. ولا ينبغي للمعلم أن يحصر دوره بين جدران المدرسة، فيعتزل الناس، ويزهد في صحبتهم، فلا شيء أقتل لنفس المعلم من العزلة، لأنها تبعده عن الحياة، وتوقعه في التشاؤم، وتملأ نفسه قلقاً واضطراباً.

ولا بد للمعلم من التواصل مع تلامذته بعيداً عن مقاعد الدراسة، فيشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويتفقد أحوالهم، ويزورهم في منازلهم، ويتعرف إلى أهليهم. ويؤكد ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) على ذلك بقوله: "أن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم... وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائداً عن العادة سأل عنه وعن أحواله وعن من يتعلق به، فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه، وهو أفضل. فإن كان مريضاً عاده، وإن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوائجهم، ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد عليه ودعا له"[٢].

وكان علماء السلف يربون تلامذتهم على ذلك قولا وسلوكا، فقد ورد عن بعضهم أنه "إذا جلس إليه رجل فافتقده سأل أهل المجلس: ما فعل صاحبكم؟ فإن قالوا: ما ندري؟ قال: أين منزله؟ فإن قالوا: لا ندري، ضجر عليهم، وقال: لأي شيء تصلحون؟ يجلس إليكم رجل، لا تدرون أين منزله، إذا اعتل لم تعودوه، وإن كانت له حاجة لم تعينوه، فإن عرفوا منزله، قال: قوموا بنا إليه حتى نأتيه في منزله فنسليه ونعوده"[٣].

---

(١) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢ - ١٠٤.

(٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، الفقيه والمتفقه، م٢، ج١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١١٩.

٥. المعلم نصوح لتلامذته رفيق بهم.

لا يسع المعلم لأية مرحلة دراسية وعلى أي مستوى تعليمي إلا "أن يكون مستشاراً نصوحاً للمتعلمين، لأن طبيعة التعليم تضعه في هذا المركز، فالمتعلم تجابهه قضايا متعددة، ويجد نفسه أمام مواقف تتطلب منه اتخاذ قرارات بشأنها فيلجأ إلى معلمه لمساعدته في اتخاذها"[١]. ولهذا لا بد للمعلم أن يكتسب ثقة تلامذته ومحبتهم، حتى يطمئنوا لاستشارته، ويثقوا برأيه ونصحه وإرشاده. وهو مؤتمن في ذلك، وعليه "أن يحب لطالبه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه"[٢]. وأن "لا يدع من نصح المتعلم شيئا"[٣].

ولقد اعتبر الإسلام المتعلمين بمنزلة الأبناء للمعلم، ينصح لهم ويصونهم ويشفق عليهم، ففي الحديث الشريف: (إنما أنا لكم مثل الوالد لولده)[٤]. و"لذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية"[٥]. وهذا يبين حجم مسؤولية المعلم. ولذا على المعلم "أن يعتني بمصالح الطالب ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه والإحسان إليه"[٦]. و"أن يتواضع مع الطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه ويلين له جانبه.. وكذلك ينبغي أن يترحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه، ويكرمهم إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم بعد رد سلامهم، وليعاملهم

---

(١) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص١٢٨.

(٢) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٨٨.

(٣) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٧٠.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة. انظر: الحداد، محمود بن محمد، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي، (مرجع سابق)، ج١، ص١٦٣، برقم: ١٤٣.

(٥) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٩.

(٦) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٨٨.

بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإعلام المحبة وإضمار الشفقة"[١]. وبالجملة فهم وصية رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث الشريف: (إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً)[٢]. وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: "أكرم الناس عَلَيَّ جليسي الذي يتخطى رقاب الناس إليّ، لو استطعت أن لا يقع الذباب عليه لفعلت"، وفي رواية: "إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني"[٣].

وعلى المعلم أن يصبر على جفاء بعض المتعلمين إن وقع، وعلى نقص لا يكاد يخلو منه إنسان، أو سوء أدب في بعض الأحيان "فيبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف، لا بتعنيف وتعسف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه"[٤]. إلا أن الرفق والشفقة والصبر على المتعلم لا يمنع المعلم من أن يقف موقف المصلح المربي المهذب، فيزجر المتعلم عن سوء الأخلاق أو مخالفة النظام، ولكن "بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار"[٥].

وقد يضطر المعلم لاستخدام الزجر مع بعض المتعلمين ممن " ظهر منه لدد في بحثه أو سوء أدب، أو ترك الإنصاف بعد ظهور الحق، أو أكثر الصياح بغير فائدة، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه، أو نام أو تحدث مع غيره، أو ضحك أو استهزأ بأحد من الحاضرين، أو

---

(١) المرجع نفسه، ص١٠٥ وما بعدها.

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري. انظر: الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق: محمود محمد محمود نصار، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٤٦٠، برقم: ٢٦٥٠.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٨٨.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٨٩.

(٥) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٧١.

فعل ما يخل بأدب الطالب في الحلقة. هذا كله بشرط أن لا يترتب على ذلك مفسدة تربو عليه"[١].

٦. المعلم عادل في تعامله مع المتعلمين.

يعد العدل من أبرز سمات المعلم الناجح، بحيث ينال كل متعلم عنده الفرصة نفسها التي ينالها زميله، في التعبير عن رأيه، وفي تصحيح المعلم لمعلوماته، وفي مجال الثواب والعقاب، بل وحتى في نظراته إلى تلاميذه أثناء شرح الدرس، "فلا يخص بعضهم في ذلك دون بعض"[٢]. ذلك لأن قدرا من الصحة النفسية عند الطالب يتوقف على نوع المعاملة التي يتلقاها من المعلم، ومن المعلوم أن المتعلمين يتميزون بالحساسية الشديدة تجاه عدالة معلميهم، وقد تترك آثارا سلبية في نفسيات المتعلمين، مما يؤثر على تحصيلهم العلمي بمجرد شعورهم بتحيزه وعدم عدالته ومحاباته لمتعلم على حساب آخر. ناهيك عما يورثه تفضيل بعض الطلبة لجاه أو غنى من حقد وضغينة على المعلم والطالب.

ولهذا على المعلم أن يراعي العدالة في كافة الأمور صغيرها وكبيرها، ويرى ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) أن من أدب المعلم مع طلبته مطلقا "أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة فإن ذلك ربما يوحش منه الصدر وينفر القلب، فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً أو أبلغ اجتهاداً أو أحسن أدباً فأظهر إكرامه وتفضيله وبيَّن أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب فلا بأس بذلك؛ لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات. وكذلك لا يقدم أحداً في نوبة غيره أو يؤخره عن نوبته إلا إذا رأى في ذلك مصلحة تزيد على مصلحة مراعاة النوبة، فإن سمح بعضهم لغيره في نوبته فلا بأس"[٣].

---

(١) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٨.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص١٠٠.

وبما أن المعلم بمنزلة الوالد فهو مأمور بتحقيق العدل، كما جاء في الحديث الشريف: (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)[١]. وقد جاء ذلك بأمر الله لرسوله ﷺ وهو قدوة المعلمين، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

٧. المعلم واسع الاطلاع في مادته العلمية:

تعد غزارة المادة العلمية أحد أهم عناصر الكفاية الخاصة للمعلم. فلا يوصف المعلم بالكفاءة ما لم يكن ملماً بمادته العلمية، متمكناً منها، عارفاً بما يعلمه أتم المعرفة، متفهماً لأصوله وفروعه وتفاصيله، مطلعاً على آفاقه العليا.

ولذلك لا بد له أن يبقى على صلة بالمادة التي يعلمها، وأن يداوم الدراسة والبحث فيها ليتعرف على كل جديد، ويلزمه "دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد.. والاشتغال والإشغال قراءة وإقراء ومطالعة وفكراً وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً وبحثاً"[٢]. وهذا لا يمنع من التصدي لجملة من العلوم أو الفنون والاشتغال بها ما دام قادرا على الإلمام بطبيعتها واستيعاب أصولها وفروعها.

ومن أفضل وسائل النمو العلمي للمعلم مجالسة علماء فنه الثقات والبحث معهم، و"الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة، وكمال الأهلية، فإنه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة"[٣].

والمعلم الجيد يجب أن يكون أحسن متعلم، وعليه أن "يطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد، ويحاسبها على ما حصله"[٤]. ولذلك قيل: "لا يزال الرجل عالما

---

(١) رواه مسلم عن النعمان بن بشير. انظر: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، (مرجع سابق)، ج٣، ص١٢٤٣، برقم: ١٦٢٣.

(٢) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٦١.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٨٦.

ما تعلم، فإذا ترك التعلم، وظن أن قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون"[١]. وقد يأتيه العلم ويحقق الفائدة من تلاميذه حين يتبادلون في الدرس ما يمتلكون من أفكار ومعارف فيفيد كل منهم من الآخر. والمعلم الناجح "لا يستنكف من التعلم والاستفادة ممن هو دونه في منصب أو سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده"[٢].

وقد كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم[٣].

وبهذا نخلص إلى حقيقة لم تعد الآن موضع شك وهي تداخل عمليتي التعلم والتعليم من حيث اعتماد كل منها على الأخرى. فلا يحدث التعلم إذا لم يكن التعليم مؤثرا، والتعليم الجيد في النهاية لا بد أن يؤدي إلى تعلم. والمتعلم عادة لا يعطي انتباهه إلى المعلم القاصر في تعليمه، العاجز عن الإحاطة بأبعاد مادته. والمعارف الضئيلة قلما تثير أذهان التلاميذ أو تحرك أخيلتهم.

٨. المعلم ذو ثقافة عامة:

تعرف الثقافة العامة بأنها: "الثقافة الإنسانية الواسعة التي تهيئ للمرء أسباب مؤالفة الطبيعة، ومؤالفة الحياة الاجتماعية، ومؤالفة القيم الروحية... والمعلم لا يكون صالحا حتى يكون مزودا بثقافة عامة تعينه على فهم الطبيعة والمجتمع، وتمكنه من إدراك ما يترتب على عمله من خير و شر، وتساعده على إدراك القيم الخلقية والمبادئ العلمية والمفاهيم الفنية"[٤]. لأن وظيفة المعلم لا تقتصر على نقل المعلومات إلى التلميذ، فهي أشمل من ذلك حيث تتضمن تثقيف عقول المتعلمين، وتزويدهم بالعادات العقلية الصحيحة، والمهارات المختلفة، والمعلومات المتنوعة،

---

(١) روي هذا الأثر عن سعيد بن جبير. انظر: المرجع نفسه، ص٦٠.

(٢) العلموي، عبد الباسط، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، المكتبة العربية، دمشق، ط١، ١٣٣٩هـ/١٩٣٠م، ص٤٢.

(٣) قال الحميدي (وهو تلميذ الشافعي): صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيد من المسائل، وكان يستفيد مني الحديث. وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لي حتى آخذ به. انظر: المرجع نفسه، ص٤٢.

(٤) صليبا، جميل، مستقبل التربية في العالم العربي، (مرجع سابق)، ص٣٧٠.

بالإضافة إلى تهذيب نفوسهم، ومساعدتهم على تكوين قيم ومثل عليا، وعادات اجتماعية واتجاهات وأذواق، إلى جانب تنمية استعداداتهم وتوجيه قدراتهم، وكل ذلك يتطلب معرفة بعلوم مختلفة غير مادة تخصصه.

وإذا عمد المعلم إلى التخصص العلمي فلا بد أن "يشتمل في أوائله ونهاياته على ثقافة عامة تفوح منه أو تزينه، بل التخصص المصحوب بالثقافة العامة يرتقي بالمعلم من معرفة الظواهر الخاصة التي يدرسها إلى آفاق عالية يطل منها على الميادين الأخرى، ومع أنه ليس للإحاطة بجميع العلوم سبيل، فإن حاجة معلمي الرياضيات ومعلمي الطبيعيات ومعلمي الاجتماعيات إلى الثقافة العامة لا تقل عن حاجتهم للتبحر في موضوعات علومهم، لأنهم متكفلون جميعا بتعليم فريق واحد من الطلاب، فإذا لم تجمع بينهم ثقافة واحدة لم يكن في تعاونهم في تربية هؤلاء الطلاب سبيل"[١].

ومن هذا المنطلق كان على المعلم المسلم لكي يتملك ناصية الثقافة العامة" أن لا يدع فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فإن العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض"[٢]. ولهذا كان المتعلم يهتم بدراسة القرآن الكريم حفظا وتفسيرا، ودراسة علم الحديث الشريف، وأصول العقيدة، وعلم الفقه وأصوله، واللغة العربية وآدابها، بالإضافة إلى القدر المناسب من العلوم الأخرى.

ويؤكد ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) على المتعلم "إذا تحققت أهليته وتأكدت معرفته فالأولى أن لا يدع فناً من العلوم الشرعية إلا نظر فيه، فإن ساعده القدر وطول العمر على التبحر فيه فذاك وإلا فقد استفاد منه ما يخرج به من عداوة الجهل بذلك العلم، ويعتني من كل علم بالأهم فالأهم"[٣]. وعليه أن يسلك مساراً

(١) المرجع السابق نفسه، ص٣٧١.

(٢) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٥.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص١٧٥.

منهجياً صحيحاً للحصول على الثقافة اللازمة بأن "يحفظ من كل فن مختصراً... وليحذر من الاعتماد في ذلك على الكتب ابتداء، بل يعتمد في كل فن من هو أحسن تعليما له وأكثر تحقيقا فيه وتحصيلا منه"[١]. وإذا ما أراد التوسع في المطالعة فعليه أن "يعطي الكتاب الذي يقرؤه أو الفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه، وكذلك يحذر من التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب فإنه علامة الضجر وعدم الفلاح"[٢].

٩. المعلم عارف بطبيعة المتعلم:

لقد أدرك المعلمون الأوائل أن معرفة المعلم بتلاميذه وفهمه لطبيعتهم من أهم عوامل نجاحه في أداء رسالته. وكان من الضروري عندهم أن يعرف المعلم أحوال تلاميذه معرفة شاملة، ولهذا يؤكد ابن جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) على المعلم بأن "يستعلم أسماء طلبته وأنسابهم وموطنهم وأحوالهم"[٣]. ولمزيد من المعرفة عليه "أن يراقب أحوالهم في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا"[٤]. ولا يبدأ بتعليم أحد من تلاميذه "حتى يجرب ذهنه ويعلم حاله"[٥]، وبذلك تسهل عليه معاملة كل فرد بحسب قدراته، ويحسن توجيهه بحسب استعداداته، "فلا يلقي إليه ما لم يتأهل له لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه"[٦]. فإذا "سلك الطالب في التحصيل فوق ما يقتضيه حاله أو تحمله طاقته، وخاف الشيخ ضجره، أوصاه بالرفق.. وإذا علم أو غلب على ظنه أنه لا يفلح في فن، أشار عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه"[٧].

ولهذا ينبغي أن تكون معرفة المعلم بتلاميذه أكثر من معرفة التلاميذ بأنفسهم، وذلك لما يتمتع به من العلم والخبرة وسعة الفهم، فقد يخطئ المتعلم في

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦٨ - ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٤.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص١٠١.

(٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٥) المرجع نفسه، ص٩٧.

(٦) المرجع السابق نفسه، ص٩٠.

(٧) المرجع نفسه، ص٩٥ وص٩٧

تقدير إمكاناته وتقويم قدراته، فيضع لنفسه مستوى من الطموح يفوق ما عنده من قدرات، ويحاول جاهدا بلوغ أهداف تقصر دونها استعداداته.

وهنا تبدو أهمية معرفة المعلم التامة بتلميذه ليتمكن من توجيهه وإرشاده، وليختار المنهج المناسب والأسلوب المناسب، "فيخاطب كلاً على قدر درجته وفهمه وهمته، فيكتفي للحاذق بالإشارة، ويوضح لغيره العبارة، ويكررها لمن لا يفهمها إلا بتكرار"[١]. ويلخص ذلك حديث رسول الله ﷺ: (أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)[٢].

١٠. المعلم حسن المظهر والهيئة

اعتنى الإسلام بحسن المظهر، واعتبر ذلك من الخصال التي يحبها الله تعالى. وإذا كان المسلم مطالب به، فهو من المعلم أشد وآكد، لأنه محط أنظار الكثير من الناس، وأنموذج لطلبته الذين تبقى عيونهم شاخصة إليه، فيقتفون أثره ويسلكون في السمت والهدى مسلكه، وهو بذلك يكون مقبولا من طلابه ومن الناس جميعا. لذلك كان المعلم المسلم لا يظهر إلا بما يليق بالعلم وأهله، "فإذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث وتنظف وتطيب ولبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة"[٣]. لينفي عن نفسه أية شبهة للعجب بالنفس أو للخيلاء بالثياب وما أشبه. لذلك كان الإمام مالك[٤] (ت:١٧٩هـ/٧٩٥م)

---

(١) العلموي، عبد الباسط، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، (مرجع سابق)، ص٤٩.

(٢) رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وقد ورد من الآثار ما يقويه: ففي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه موقوفاً "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"، ونحوه ما في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ "ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٢٥، برقم: ٥٩٢.

(٣) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٦٥.

(٤) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة، صاحب المذهب، وأحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٩٣ هـ، عالم المدينة، شهرته تغني عن التعريف به، تتلمذ عليه الشافعي، ومن أشهر =

رحمه الله تعالى "إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ووضع رداءه على رأسه ثم يجلس على منصة ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ"[١]. ولما قيل له في ذلك قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ"[٢]. وكان يقول: "ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان"[٣]. وبذلك يتعلم التلميذ من سلوك معلمه كيف تعظم مجالس العلم، ويلتزم ما يطلب منه من آداب النظافة بأن يكون "كامل الهيئة متطهر البدن والثياب نظيفهما بعدما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر، وقطع رائحة كريهة، لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم"[٤].

***

=

تصانيفه: الموطأ. توفي سنة ١٧٩هـ. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (مرجع سابق)، ج٨، ص٤٨ وما بعدها، برقم١٠.

(١) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص٦٥.

(٢) انظر: الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٦، (مرجع سابق)، ص٣١٨.

(٣) الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، د.ط، ١٣٧٤هـ، ص٢١١.

(٤) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، (مرجع سابق)، ص١٤٥.